April 25, 2021

The Episcopal Diocese of Olympia

The Episcopal Church in Western Washington www.ecww.org

عظة القداس الواحد، القسيسة كارلا روبنسون – 25 أبريل 2021

إن صورة يسوع الراعي الصالح واحدة من الصور الأكثر ديمومة في تاريخ الكنيسة، إذ تتجلى في كل مكان. ولقد ألهمت أطنانًا من المواد التعبديّة والتأملات والكتب والخطب والأعمال الفنية على اختلاف أشكالها وألوانها والنوافذ المصنوعة من الزجاج الملون والمنحوتات والتماثيل والمقطوعات الموسيقية والكتب الموجزة والمطوّلة والأناشيد والأغاني. ولقد علّقنا هذا الاسم على بنايات الكنائس والمستشفيات، بل حتى على أبواب العيادات البيطرية. وفي كل عيد فصح، تظهر هذه الصورة في هذا الموسم النابض بالحياة.

ولِمَ لا؟ فهي صورة قوية للعلاقة المتينة بين المسيح وشعب الرب. وهي في جوهرها وصميمها تتناول هذه العلاقة. وغالبًا ما نطلق عليها اسم صورة "الراعي الصالح". وأُفَضِّل أن أطلق عليها اسم "الراعي الصالح للقطيع"، لأن الراعي بلا قطيع لا يتسق والمنطق، شأنه شأن القطيع بلا راعي. إنهما متلازمان. وهذه صورة علائقية ينسجها كلها يسوع في شتى أجزاء قراءة الكتاب المقدس هذه، بدايةً من مرحلة مبكرة جدًا في هذا الفصل، وصولاً إلى هذه الذروة التي يقول فيها: "قطيع واحد، راعي واحد". يقول يسوع:" أنا الراعي الصالح". لقد دعانا إلى علاقة معه حقيقية وصادقة.

اعتادت أمي أن تقول لنا: "أتعرفون؟ يمكنكم أن تخبرونني بأي شيء، أو تحملوني على الإيمان بأي شيء، لكنكم لا تستطيعوا أن تفعلوا المثل مع الرب". قالتها لا لتجعلني أهاب الرب، وإنما لتعرض علينا صورة مفادها أن هذا هو القُرب الموجود مع الرب. لذلك، فعندما يتعلق الأمر بمعية يسوع، يمكننا أن نبوح بمكنون صدورنا في خضم هذه الأصالة التي تكتنفنا. وهذا يعني أن بوسعنا أن نبوح بمكنون صدورنا عندما نجوع ونصاب بالإحباط، وعندما يغمرنا الخوف ويصيبنا الذعر، وعندما يتملص منا اليقين، وعندما تغمرنا السعادة حتى أننا نشعر برغبة في الرقص على السقف، وعندما نصاب بخيبة الأمل الشديدة حتى أننا نكاد لا نبارح مكاننا. ويمكننا أن نبوح بمكنون صدورنا في خضم الأصالة الكامنة في هذه العلاقة.

إن الأصالة الكامنة في هذه العلاقة مُصممة لإلهامنا أن نقيم علاقات أقوى في حياتنا الخاصة. ستلاحظون أنني لا أزعم أننا سنقيم علاقات مثالية مع بعضنا بعضًا، غير أن هذه العلاقة تلهمنا في الشق المتعلق بضرورة أن نخطو خطوات إلى الأمام. لقد كانت أزمة جائحة فيروس كورونا المُستجد عصيبة على العلاقات. فقد تقطعت أواصرنا. وانفصل كثيرون منا على حين غرة عن أنماطنا الحياتية المألوفة، إذ كنا نلتقي متحلقين حول مائدة الرب وفي حضرة شعب الرب، وكان بوسعنا أن نتعانق ونلقي على بعضنا البعض التحية. ولكن، أتعرفون ما الممارسة الجديدة الغريبة؟ لعلها ليست ممارسة جديدة كليًا، وإنما ممارسة قديمة تجددت وعادت إلى الحياة. إنها ممارسة أمسيت أطلق عليها اسم "التساؤل الرؤوف". فبينما تباعدنا عن بعضنا بعضًا، ربما أصبح لدينا وقت أطول مما أُتيح لدينا لنجلس ونتساءل: "كيف حال فلان؟" وساقنا ذلك إلى تلك المكالمات الهاتفية ودردشات برنامج زووم، والخطابات والبطاقات العتيقة الجميلة لنطرح سؤالاً بسيطًا. "كيف حالك؟"

إننا نتطلع إلى أن نكون قادرين على الاجتماع مجددًا، لكنني أود أن أشجعنا جميعًا على مواصلة ممارسة "التساؤل الرؤوف" هذه. وأن نتحلى بما دعاه جوني كاش في واحدة من أغانية "الشعرات الأخيرة من الروابط المتينة التي تربط بين الناس". وأن نتساءل عن حالنا، وننظر حتى إلى الأحداث المهمة في ثقافتنا وبلدنا بوصفها فرصًا للتساؤل الرؤوف. اسمحوا لي أن أضرب لكم مثلاً لما أقصده. قبل بضعة أصابيع، كانت الأحداث التي وقعت في جورجيا مروعة بالنسبة لنا. فقد كانت رؤيتنا لأخواتنا الأسيويات مُستهدفات ومشوهات وقتيلات صدمة عنيفة لنا، لكنها جثمت بشدة على صدور أشقائنا الآسيويين. كانت هناك فرصة لهذا التساؤل الرؤوف الجميل، وكانت هناك فرصة لأن نسأل: "يا إلهي، أنا أعرف فلانًا وفلانًا في رعيتنا. تُرى كيف حالهم؟ كيف حالكم؟" إنه سؤال بسيط. وقد يُسْفِر عن علاقة جديدة كليًا، لكنه سؤال بسيط يفتح بابًا صغيرًا على خطوة جديدة في عالم العلاقات.

يقول يسوع داعيًا إيانا إلى علاقة حافلة بالأحداث: "أنا الراعي الصالح". لعلكم الآن تتساءلون: "ما الأحداث الشيقة المتعلقة بالخراف؟ أليست مجموعة باعثة على الضجر من الحيوانات؟ ولا تأتي من الأفعال إلا قليلاً. وتجلس بلا حراك ولا تكف عن الثغاء، ومنها نستخلص الفراء، ويسعد الجميع بذلك. حسنًا، إن كون المرء راعيًا وجزءًا من القطيع لأمر حافل بالأحداث الشيقة. فلم تكونوا جلوسًا بلا حراك طيلة اليوم. صحيح، أنكم ربما كنتم في الحظيرة، لكنكم كنت تروحون وترجعون. وكان المرعى يقتضي منكم الترحال، أحيانًا لأميال، وأن يقودكم الراعي إلى مكان جديد وغض. وكنتم تسافرون لمجرد البحث عن الكمية المناسبة من الماء، وأنتم تعلمون أن الموسم سيتغير، وأن

المشهد سيتغير مع تغير المواسم. والقيادة أحيانًا ما تسوقكم إلى دروب ستكون محفوفة بالمخاطر. إن الوجود ضمن قطيع أمر حافل بالأحداث.

فقد يجد الراعي نفسه فجأة وجهًا لوجه مع المخاطر، وفجأة يتعرض لموقف حياة أو موت. وعلى الراعي أن يتخذ قرارات في لحظة واحدة. ما الذي سأفعله؟ إنها حياة حافلة بالأحداث. يقول يسوع متحدثًا عن نفسه: "إنني أحب خرافي، وإنني لأضحي بحياتي في سبيل خرافي". وجزء مما يقوله في مقولته تلك أن قلبه يقوده إلى التصرف نيابةً عن قطيعه. ويشدد على نقطة هنا في هذه العظة من الكتاب المقدس مفادها أن التضحية عمل طوعي. فحياته لا تُسلب منه. ولا يُجبره أحد على التضحية بحياته. وإنما تنبع التضحية من حبه الرائع المعطاء الذي يفور داخله ويتجسد في العالم لنراه في وجهه وفي حياته. إنني أضحي بحياتي، هكذا يقول لكم. إنني أضطلع بهذا العمل. إنني أتحرك. إنني أخطو هذه الخطوة.

وهذا ما نراه ونلمسه في شتى أجزاء الكتاب المقدس. يخبرنا أهل فيلبي أنه تخلى عن مساواته بالرب كي يتجسد في شكل عبد من عباد الرب ويحيا حياة الحب ذاتي العطاء. ونراه يضحي بحياته إذ يكرسها لخدمة الناس ومداواتهم. ونراه يضحي بحياته إذ ينطق بالصدق، عالمًا أن أروقة السلطة كلها تُردِّد صدى كلماته وعلى أهبة الاستعداد للتمرد على السلطة. ونراه يضحي بحياته حتى على الصليب، حيث يسلم الروح وتخرج أنفاسه الأخيرة.

ولكن، ما فائدة الراعي الميت حقًا؟ ألا يعني ذلك نهاية القطيع؟ يقول يسوع: إنني أضحي بحياتي، لكنني أتمتع أيضًا بالقدرة على إحيائها. وحتى إذ يفعل ذلك بمجد البعث، فإنه لا يستأثر بها لنفسه. وإنما يضحي بها طواعية؛ يضحي بتلك الحياة التي بعثها، تلك الحياة التي عادت حتى من ظلمة القبر، يلقي بها بعيدًا. وفي ارتقائه وإهدائه للكنيسة الروح القدس، نراه ينشد مواصلة تلك الخدمة الكنسية الحافلة بالأحداث التي استهلها بنفسه.

يقول يسوع:" أنا الراعي الصالح". إنه يدعونا إلى علاقة دينامية حافلة بالنشاط والحركة. والواضح أن يسوع لا يؤمن بفكرة "الوضع الراهن" كثيرًا. ولا يبدو أنه يفضل سير الأعمال كالعادة. لا يبدو أن هذا هو أسلوب حياته المفضل. وحقيقة الأمر أنه يقول شيئًا في عظته لطالما وجدته مذهلاً ومثيرًا للذعر نوعًا ما. إنه يقول لرعيته، لتلك الطائفة التي جاءت لتتعرف عليه وتعرف هو عليها. إن الوضع ربما نزع إلى التراخي، لأنهم اعتادوا على مصاحبة يسوع. قال لهم: "لي خراف أخر ليست من هذه الحظيرة. ولا بد أن أنادي عليها". أتسمعون كم هي قوية كلماته؟ "لا بد. عليّ أن أفعل ذلك. وهذه ليست وحسب فكرة سديدة. عليّ أن أفعل ذلك." وهذا القطيع الآخر ضروري.

لدينا فهم بسيط للسبب الذي يجعل هذا المعنى مُدمج في هذه الصورة. قطيع في العالم القديم. كثيرًا ما يستدعيه الراعي، عن عمد، لسببٍ وجيه. سيأتي القطيع الآخر ويختلط بالقطيع الراهن ويمتزج به ويتزاوج منه ويلد نسلاً جديدًا ليقوى القطيع. وتتطور المناعة. ويصبح القطيع أقل عرضة للأمراض. يقول العلماء إن هذا هو التنوع الجيني. وهو يقوي النوع. وعندما نستدعي هذه الفكرة نقول إننا نود أن نطبقها على الكنيسة. وعندما نتكلم عن رغبة الرب في جلب التنوع، فلا تعدُّ هذه محض إضافة لمشهد عدالتنا. وإنما أمر بالغ الأهمية لهويتنا. وأمر بالغ الأهمية لبقائنا ونجاتنا. ويسعني القول حتى أن أقول إن كنيستنا ستموت إذا لم ندرك جمال ما يفعله الرب إذ يجلب قطيعًا آخر. قطيع آخر؟ أيمكنك أن تتحري مزيدًا من الدقة بخصوص هذا القطيع الآخر، أيتها القسيسة؟

إننا نتحدث عن الأشخاص الذين لا يشبهونكم. أشخاص لا يشبهونني. أُناس ليست هذه لغتهم الأم. أُناس يأتون من بقاع بعيدة نائية. أُناس قادمون من ثقافات وُلِدَت حديثًا، وثقافات أخرى ترجع إلى قرون ماضية بل وإلى آلاف السنين. إن التنوع الذي يستحضره الرب لا ينبع من كون الرب ليبرالي صالح ويود أن ينجز هذا الأمر. وإنما لأن يسوع يفهم أنه ضروري لصمودنا وبقائنا. وسيعود النفع على الرعية كلها. سنزداد قوةً جميعًا، وسيزداد عمق فهمنا وقدرتنا على أن نظهر الحب المدهش للراعي الصالح.

ولكن، أيتها القسيسة، كيف نشرع حتى في إنجاز ذلك؟ فبعضنا أصابه الذعر نوعًا ما. وبعضنا مُتردد شيئًا ما. وبعضنا يود أن يفعل، لكنه لا يعرف كيف. حسنًا، هل أنتم مستعدون للإجابة السحرية؟ إليكم الإجابة. هذه هي. لكن كنتم تستمعون ويغلبكم النعاس نوعًا ما، فهذه هي. استيقظوا! إليكم الجواب السحري، وإليكم كيف يمكننا إنجاز ذلك. إنها واحد من العناصر التي تحدثنا عنها بالفعل. أتذكرون التساؤل الرؤوف؟ تلك الفكرة؟ والرغبة في الاستفسار بقولنا: "مرحبًا، كيف حالك؟" أتذكرون أن مهمة الكنيسة ومهمة الناس هي الحراك وأن تكون حياتهم حافلة بالأحداث؟ هذا جزء من الترابط بين الأمرين. لا، ليس لدي وصفة سحرية، لكن لدينا كلمات يسوع. ولدينا تاريخ الكنيسة في إخفاقاتنا وإنجازاتنا. لدينا كل شيء هنا.

أيمكننا أن ننجز الأمر؟ هذا ليس بالسؤال الصحيح. قيل لنا إن القوة ذاتها التي أحيت يسوع وضخت فيه حياة تعيش داخلنا. المسألة لا تتعلق حتى بقدرتنا. لعل المسألة تتعلق باستعدادنا لأن نفعل. وحتى ذاك سؤال. كيف بحق السماء يتسنى لنا حتى أن نتوقف أو نود أن نتوقف عندما يقال لنا إن هذه هي الطريقة التي سنعرف بها الرب؟ وكيف سنعرف أن الرب موجود داخلنا؟ عندما يُطرح هذا السؤال على يوحنا، فإنه يقول: "بأن نحب بعضنا بعضًا، وبالحب الموجود في قلوبنا". حسنًا، أعتقد أن هذه الأمور كلها مُتعالقة. وأعتقد أنني أستوعب هذا التعالق أحيانًا. تلك العلاقة. إنها يسوع، إنها نحن، إنها المسيح، إنها الكنيسة، إنها الراعي الصالح والرعية. هناك علاقات تتشكل وتذوب وتعود لتلتحم وتُبعث فيها الحياة. ويكاد المرء يشعر بها. يكاد يقبض عليها. ويكاد يسمع نبضات قلبها إن أرهف السمع.

إنها العلاقة بين يسوع وبيننا والكنيسة والمسيح والراعي والرعية. ولها في الأذن إيقاع، أليس كذلك؟ وهي ليست علاقة خيالية حبيسة أذهانكم وحسب. وإنها هي في قلوبكم. وتكاد تكون جزءًا من أجسادكم. الراعي والرعية. الكنيسة والمسيح. تقولون: أجل، نستوعب هذه العلاقة. ونفهم تلك الكلمات. وعندما نظن أننا استوعبنا الكلمات، يبدلها يسوع. الأب. مَن؟ الأب. ماذا؟ الأب. أجل.

الأب والراعي والخراف. الأب والراعي والخراف. الأب والراعي والخراف. الأب والراعي والخراف. أجل! الأب والراعي والخراف. الراعي الصالح. الأب والراعي والخراف يعرفكم. الأب والراعي والخراف يحبكم. الأب والراعي والخراف يضحي بحياته لأجلكم. يحيا ويموت. يموت ويرتقي. الأب والراعي والخراف. أجل! الأب الراعي والقطيع. ذاك القطيع. الأب الراعي والقطيع. الخراف الأخرى. الأب الراعي والقطيع. الخراف الجديدة والخراف القديمة، والخراف الصغيرة، والخراف الأخرى، وكل الخراف. قطيع واحد.

مكبر الصوت يسقط. انتهيت. لا، لا. ليس هكذا تجري الأمور. لا، إننا نختتم العظة بتذكير أنفسنا بالحقيقة. نقول إن حقيقة حب الرب باقية. وحقيقة ما نراه في المسيح باقية. وحقيقة وجود الروح خالدة. نقول: أجل، هذه هي الحقيقة. آمين. تلك هي الحقيقة. آمين.